معرفة المعصوم عليه السلام
بين الرؤية المادّيّة والرؤية الغيبيّة

قال اللهُ العظيم: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[1].

الحديث حول هذا الموضوع يتمُّ في نقاط ثلاث:

النقطة الأُولى
أهمّيّة معرفة المعصوم عليه السلام

عندما نرجع للروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام نجد في الروايات خطابات مكثّفة وتركيزاً بالغاً على مسألة معرفة المعصوم عليه السلام، ففي الرواية عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِمَعْرِفَةِ أَهْلِ بَيْتِي وَوَلَايَتِهِمْ فَقَدْ جَمَعَ اللهُ لَهُ الْخَيْرَ كُلَّهُ»[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «وَنَحْنُ الْأَعْرَافُ الَّذِينَ لَا يُعْرَفُ اللهُ إِلّا بِسَبِيلِ مَعْرِفَتِنَا»[3]، وهذا تصريح منه بأنّه لا سبيل لمعرفة الله تعالى إلّا بمعرفة المعصوم عليه السلام.

---

(١) البقرة ٢: ٢٦٩.

(٢) بحار الأنوار: ٢٧: ٨٨، باب ثواب حبّهم ونصرتهم وولايتهم، الحديث ٣٦.

(٣) المصدر المتقدم: ٢٤: ٢٥٣، باب أنّهم عليهم السلام أهل الأعراف الذين ذكرهم الله في ﴿

وسأل زريق الإمام الصادق عليه السلام قائلاً: يا بن رسول الله، أيّ الأعمال أفضل بعد المعرفة؟ فقال: «**مَا مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ يَعْدِلُ هَذِهِ الصَّلَاةَ، وَلَا بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ وَالصَّلَاةِ شَيْءٌ يَعْدِلُ الزَّكَاةَ، وَلَا بَعْدَ ذَلِكَ شَيْءٌ يَعْدِلُ الصَّوْمَ، وَلَا بَعْدَ ذَلِكَ شَيْءٌ يَعْدِلُ الْحَجَّ، وَفَاتِحَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ مَعْرِفَتُنَا، وَخَاتِمَتُهُ مَعْرِفَتُنَا**»(١).

وعن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام ـ في حديث ذكر فيه غيبة القائم عليه السلام ـ قال: «فقلت: جعلت فداك، فإن أدركت ذلك الزمان، فأيّ شيء أعمل؟ قال: «**يا زُرَارَةُ، إِنْ أَدْرَكْتَ ذَلِكَ الزَّمَانَ فَالْزَمْ هَذَا الدُّعَاءَ: اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي نَفْسَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ لَمْ أَعْرِفْ نَبِيَّكَ. اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي رَسُولَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُولَكَ لَمْ أَعْرِفْ حُجَّتَكَ. اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي حُجَّتَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي**»(٢).

والسؤال الذي يطرح نفسه إزاء هذه النصوص وأمثالها، هو: أنّه لماذا كلّ هذا التركيز البالغ على معرفة المعصوم عليه السلام؟

والجواب عن ذلك: أنّ أهمّيّة معرفة المعصوم تكمن في أنّ إهمالها يلقي بالإنسان في أحد محذورين خطيرين، وهما:

المحذور الأوّل: محذور الغلوّ.

ويُراد بالغلوّ: إعطاء المعصوم ما ليس له، وقد حذّرت منه الروايات، كقول الإمام الصادق عليه السلام: «**احْذَرُوا عَلَى شَبَابِكُمُ الْغُلَاةَ لَا يُفْسِدُوهُمْ، فَإِنَّ الْغُلَاةَ شَرُّ خَلْقٍ،**

« القرآن، لا يدخل الجنّة إلّا من عرفهم وعرفوه، الحديث ١٤.

(١) بحار الأنوار: ٢٧: ٢٠٢، باب أنّه لا تقبل الأعمال إلّا بالولاية، الحديث ٧١.

(٢) بحار الأنوار: ٩٢: ٣٢٦، ما ينبغي أن يدعى في زمن الغيبة، الحديث ٢.

يُصَغِّرُونَ عَظَمَةَ اللهِ»[١].

المحذور الثاني: محذور التقصير.

ويُراد به: سلبُ المعصوم ما هو له، وهو المحذور الأخطر؛ لأنّ الكثير من الناس يقع فيه، وقد حذّرت الروايات من هذا المحذور أيضاً، ففي الزيارة الجامعة: «فالرّاغِبَ عَنْكُمْ مارِقٌ، وَاللّازِمُ لَكُمْ لَاحِقٌ، وَالْمُقَصِّرُ فِي حَقِّكُمْ زاهِقٌ»[٢].

وفي الرواية عن الإمام الحسن عليه السلام، قال: «وَايْمُ اللهِ، لَا يَنْتَقِصُنَا أَحَدٌ مِنْ حَقِّنَا شَيْئاً إِلَّا تَنَقَّصَهُ اللهُ فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُ وَآجِلِ آخِرَتِهِ»[٣].

وفي زيارة عاشوراء المباركة: «وَلَعَنَ اللهُ أُمَّةً دَفَعَتْكُمْ عَنْ مَقامِكُمْ، وَأَزالَتْكُمْ عَنْ مَراتِبِكُمُ الَّتي رَتَّبَكُمُ اللهُ فيها»[٤].

وجاء في زيارة الإمام الحجّة عليه السلام: «الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي... وَلَمْ يَجْعَلْنَا مِنَ الْمُعَانِدِينَ النَّاصِبِينَ، وَلَا مِنَ الْغُلَاةِ الْمُفَوِّضِينَ، وَلَا مِنَ الْمُرْتَابِينَ الْمُقَصِّرِينَ»[٥].

ومن الواضح ترتّب كلا المحذورين على عدم المعرفة؛ إذ مَن لم يعرف المعصوم عليه السلام قد يعطيه ما ليس له، فيكون مغالياً، وقد يسلبه ما هو له، فيكون مقصّراً،

---

(١) بحار الأنوار: ٢٥: ٢٦٥، باب نفي الغلوّ عن النبيّ والأئمّة صلوات الله عليه وعليهم، وبيان معاني التفويض وما لا ينبغي أن ينسب إليهم منها وما ينبغي، الحديث ٦.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ٣٠٦، ما يجزي من القول عند زيارة جميع الأئمّة عليهم السلام، الحديث ١.

(٣) الأمالي للشيخ الطوسي قدس سره: ٨٣، الحديث ١٢١.

(٤) بحار الأنوار: ٩٨: ٢٩١، باب كيفيّة زياراته عليه السلام يوم عاشوراء، الحديث ١.

(٥) بحار الأنوار: ٩٩: ١٠٣، باب زيارة الإمام المستتر عن الأبصار، الحاضر في قلوب الأخيار، الحديث ٢.

بسبب عدم معرفته به.

وعلى ذلك فإنّه لا يصحّ من المؤمن أن يقف موقف اللّامبالاة تجاه معرفة المعصوم، ويكتفي بالإيمان بكونه إماماً، بل لا بدّ من معرفته معرفةً تبعده عن الوقوع في المحذورين المتقدّمين.

النقطة الثانية

أبعاد الرؤية المادّيّة لمعرفة المعصوم عليه السلام

في مجال معرفة المعصوم عليه السلام توجد هنالك رؤيتان:

الرؤية الأُولى: الرؤية الغيبيّة، وهي الرؤية التي تقول: إنّ المعصوم عليه السلام كائن بشريّ، ولكنّه متّصل بالغيب، فهو لا يخطئ ولا يلهو ولا يسهو ولا يلعب، وله قدرة على التصرّف في أُمور التكوين بإذن الله تعالى، كما أنّ له ولاية على شؤون التشريع.

الرؤية الثانية: الرؤية المادّيّة، وهي الرؤية التي تقول: إنّ المعصوم عليه السلام لا يختلف عن غيره من البشر، وليست له أيّ امتيازات يتميّز بها، سوى أنّه مبلّغ عن الله (عزّ وجلّ).

ووجهُ التعبير عن الرؤية الأُولى بالغيبيّة، وعن الثانية بالمادّيّة: أنّ العوالم الوجوديّة كلّها تنطوي ضمن عالمين:

العالم الأوّل: عالم الحسّ والمادّة، وهو العالم الذي يمكن أن ندركه بحواسّنا الظاهريّة.

العالم الثاني: عالم الغيب والمعنى والملكوت، وهو: العالم الذي لا يمكن أن ندركه بحواسّنا الظاهريّة.

وهذا العالمان متداخلان حتّى في تركيبة الإنسان؛ لأنّ الإنسان مركّب ثنائيّ من البدن الذي هو من سنخ عالم المادّة، والروح التي هي من سنخ عالم الغيب، ومتى ما طغت نزعة المادّة على نزعة الغيب نتج عن ذلك أثران خطيران:

الأثر الأوّل: صيرورة سلوك الإنسان سلوكاً مادّيّاً بحتاً، من قبيل أن يكون حريصاً على الدنيا وملذّاتها.

الأثر الثاني: الخطأ في فهم الحقائق، بحيث يصبح الإنسان الذي تغلب عليه النزعة المادّيّة لا يفهم الأُمور إلّا بصورة مادّيّة، فحين تُعرض عليه قضيّة الآخرة يقول: ﴿**مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾[1]، وما ذلك إلّا لأنّ النزعة المادّيّة قد طغت على أصحاب هذا المنطق فأنكروا المعاد والنبوّة ووجود الله تعالى، وكلّما كان الإنسان أكثر إغراقاً في النزعة المادّيّة كلّما كانت الحقائق التي ينكرها أكثر وأكبر، حتّى أنّه قد يصبح من الإلحاديّين، والعكس بالعكس.

إذا عرفت ذلك، فإنّ الرؤية المادّيّة للمعصوم عليه السلام تنطلق من غلبة النزعة المادّيّة على النزعة الروحيّة، والرؤية الغيبيّة تنطلق من غلبة النزعة الروحيّة على النزعة المادّيّة.

وهاتان الرؤيتان أصبحتا سمتين للمدرستين المعروفتين عند المسلمين، فالرؤية المادّيّة أصبحت سمة مدرسة الخلفاء، والرؤية الغيبيّة أصبحت سمة لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، ويُعلم ذلك من خلال الآيات القرآنيّة المرتبطة بالنبيّ صلى الله عليه وآله وكيفيّة تعامل مدرسة الخلفاء معها، وكذا كيفيّة تعامل مدرسة أهل البيت عليهم السلام معها.

---

(١) الجاثية ٤٥: ٢٤.

نماذج لتعامل أصحاب الرؤية المادّيّة مع الآيات القرآنيّة:

ولا بأس بسَوقِ بعض الأمثلة لإيضاح الفكرة:

المثال الأوّل: قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ**﴾(١)، وقد فسّرت مدرسة الخلفاء الوزرَ الذي وضعه الله عن نبيّه ﷺ بالذنب والمعصية(٢)؛ لأنّ النبيّ بنظرهم كسائر البشر يمكن أن يخطئ، وهذه هي الرؤية المادّيّة التي تعتقد في المعصوم بأنّه مجرّد مبلّغ لا ميزة له.

وأمّا مدرسة أهل البيت عليهم السلام فتطرح: أنّ الوزر بمعنى الحمل الثقيل، كما هو أساس المعنى اللغويّ، وإنّما سمّي الذنب وزراً لأنّه يشكّل حملاً ثقيلاً على صاحبه، ولكنّ الحمل الثقيل في الآية ليس هو هذا، وإنّما هو الوظيفة الإلـهيّة، ويمكن فهم ذلك من خلال مقارنة هذه الآيات بآيات أُخرى متقاربة معها مضموناً، وهي قوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾(٣)، وإذا كان الله تعالى ـ بمقتضى هذه الآيات ـ قد شرح صدر نبيّه موسى عليه السلام بأن جعل له وزيراً، وهو هارون عليه السلام، فهذا يقرّب أن يكون الله تعالى في تلك الآيات قد شرح صدر محمّد ﷺ، وأزاح عنه الحمل الثقيل،

---

(١) الشرح ٩٤: ١ ـ ٣.

(٢) لاحظ مايلي: الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي: ٢٠: ١٠٥.

وكذلك راجع: جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري: ٣٠: ٢٩٥، بل بالغ بعضهم كما حكى عنه الطبري فقال: لم تكن للنبيّ ﷺ ذنوب فحسب، بل كانت له ذنوب قد أثقلته، فغفرها الله له.

(٣) طه ٢٠: ٢٥ ـ ٣٢.

عندما جعل له وصيّاً يحمل عنه عبء الوظيفة الإلـٰهيّة ، وهو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، ومن هنا جاء في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال : « ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ بعليّ ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ ، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ عليّاً »[١].

المثال الثاني : قوله تعالى : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى﴾[٢] ، والذي تطرحه مدرسة الخلفاء أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان على أمر قومهِ في الضلالة والخطأ ، فهداه الله تعالى ؛ لأنّه كبقيّة البشر الذين يدور أمرهم بين الهداية والضلال[٣].

أمّا مدرسة أهل البيت عليهم السلام فتطرح : أنّ كلمة الضلال في اللغة العربيّة لها أكثر من معنى ، ومن أبرزها معنيان :

المعنى الأوّل : الضلال المقابل للهداية ، وهذا هو المعنى الذي تطرحه مدرسة الخلفاء .

المعنى الثاني : الضلال بمعنى الضمور والخفوت ، كما في الحكمة الشهيرة عن أمير المؤمنين عليه السلام : « **الْحِكْمَةُ ضالَّةُ الْمُؤْمِنِ** »[٤] ، أي : أنّها لخفائها وضمورها تُطلب كالضالّة الضائعة .

وهذا المعنى هو المقصود من الآية المباركة ؛ ولذلك لمّا سئل الإمام الرضا عليه السلام

---

(١) تفسير فرات الكوفي : ٥٧٤ .

(٢) الضحى ٩٣ : ٧ .

(٣) معالم التنزيل المعروف بتفسير البغوي : ٥ : ٢٦٨ . المستصفى في علم الأُصول : ١٤٠ ، وراجع كذلك : الطبقات الكبرى : ١ : ١٩٠ ، وفي المصدر الأوّل : « أنّ الله هداه إلى التوحيد » ، وهذا اتّهام له صلى الله عليه وآله بأنّه كان على الكفر .

(٤) نهج البلاغة : ٤ : ١٨ .

عن هذه الآية المباركة قال: « ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ﴾ يَعْنِي عِنْدَ قَوْمِكَ ، ﴿فَهَدَى﴾ أَيْ هَدَاهُمْ إِلىٰ مَعْرِفَتِكَ »[1]، وهو ما أكّدَ عليه القرآن الكريم في آية أُخرى عندما قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[2].

المثال الثالث: قوله تعالى شأنه: ﴿عَبَسَ وتَوَلَّى * أَنْ جاءَهُ الأَعْمىٰ * وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنىٰ * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدّىٰ * وَما عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكّىٰ﴾[3]، فإنّ الطرح الذي تطرحه مدرسة الخلفاء أنّ العابِس الذي انزعجَ من مجيء الأعمى له، حتّى بدا العبوس على وجهه، وأعرضَ عنه، بينما أدار بوجهه للغني وتصدّى له، هو النبيّ الأعظم ﷺ، وما ذلك إلّا لأنّه كغيره من البشر الذين يتصفون بمحاسن الأخلاق وبأضدادها[4].

وهذا ما ترفضه مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وتطرح في المقابل أنّ العابس ليس هو النبيّ ﷺ، وإنّما هو رجلٌ مِن بني أُميّة.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: « **أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَلَمَّا رَآهُ تَقَذَّرَ مِنْهُ، وَجَمَعَ نَفْسَهُ وَعَبَسَ، وَأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ عَنْهُ، فَحَكَى اللهُ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ وَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِ** »[5].

ولشيخ الطائفة الطوسيّ (طيّب الله تربته) كلامٌ متينٌ حول نظريّة مدرسة الخلفاء،

---

(١) الاحتجاج: ٢: ٢١٩.

(٢) الشرح ٩٤: ٤.

(٣) عبس ٨٠: ١ ـ ٧.

(٤) لاحظ: جامع البيان في تفسير آي القرآن: ٣٠: ٦٤، وكذلك الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبيّ: ١٩: ٢١١.

(٥) بحار الأنوار: ٣٠: ١٧٥، الحديث ٣١.

قال فيه : «فقال كثير من المفسّرين وأهل الحشو : إنّ المراد به النبيّ ﷺ ، قالوا : وذلك أنّ النبيّ ﷺ كان معه جماعة من أشراف قومه ورؤسائهم ، قد خلا بهم ، فأقبل ابن أُمّ مكتوم ليسلم ، فأعرض النبيّ ﷺ عنه ، كراهيةَ أن تكره القوم إقباله عليه ، فعاتبه الله على ذلك .

وقيل : إن ابن أُمّ مكتوم كان مسلماً ، وإنّما كان يخاطب النبيّ ﷺ وهو لا يعلم أنّ رسول الله مشغول بكلام قوم ، فيقول : يا رسول الله .

وهذا فاسد ، لأنّ النبيّ ﷺ قد أجلّ الله قدره عن هذه الصفات ، وكيف يصفه بالعبوس والتقطيب ، وقد وصفه بأنّه ﴿عَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾[١] ، وقال : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٢] ، وكيف يعرض عمّن تقدّم وصفه مع قوله تعالى : ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُريدُونَ وَجْهَهُ﴾[٣] .

ومن عرف النبيّ ﷺ وحسن أخلاقه ، وما خصّه الله تعالى به من مكارم الأخلاق وحسن الصحبة ، حتّى قيل : إنّه لم يكن يصافح أحداً قطّ فينزع يده من يده ، حتّى يكون ذلك الذي ينزع يده من يده ، فمن هذه صفته كيف يقطب في وجه أعمى جاء يطلب الإسلام ؟! على أنّ الأنبياء عليهم السلام منزّهون عن مثل هذه الأخلاق ، وعمّا هو دونها ؛ لما في ذلك من التنفير عن قبول قولهم والإصغاء إلى دعائهم ، ولا يُجَوِّز مثل هذا على الأنبياء من عرف مقدارهم وتبيّن نعتهم»[٤] .

---

(١) القلم ٦٨ : ٤ .

(٢) آل عمران ٣ : ١٥٩ .

(٣) الأنعام ٦ : ٥٢ .

(٤) التبيان في تفسير القرآن : ١٠ : ٢٦٨ .

سؤالٌ مهمٌّ:

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوّةٍ في المقام، هو: لماذا كلُّ هذا الإصرار على تصوير النبيّ الأعظم ﷺ بأنّه مجرّد بشر يخطئ كما يخطئ غيره، ويجهل كما يجهل غيره، ويتّصف بالرذائل الأخلاقيّة كما يتّصف بها الآخرون من البشر؟

ويجيب عن ذلك الحداثيّون المتبنّون لنفس الرؤية المادّيّة التي تتبنّاها مدرسة الخلفاء، فيقولون:

إنّ القرآن الكريم هو المؤسّس لهذهِ الرؤية، فإنّه في العديد من آياته الشريفة يركّز على الجنبة البشريّة عند النبيّ ﷺ، وهي التي تفرض النظر إليه من خلال الرؤية المادّيّة، فالقرآن هو القائل: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**﴾(١)، وهو القائل أيضاً: ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً**﴾(٢).

ولا يخفى ما في هذه الإجابة من التمويه؛ وذلك لأنّ القرآن عندما ركّز على الجنبة البشريّة للنبيّ ﷺ إنّما ركَّزَ عليها في مقام الاحتجاج على الناس ليس إلاّ، ويمكن فهم ذلك من خلال الإجابة التي يطرحها الكلاميّون عن السؤال القائل: لماذا يجب أن يكون النبيّ أو الرسول من جنس البشر، ولا يصحّ أن يكون من الجنّ أو الملائكة؟

حيث يجيبون عنه: بأنّ ذلك من أجل الاحتجاج على الناس؛ لأنّه لو كان الرسول ملَكاً، ثمّ قال الله تعالى للناس: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً**﴾(٣)، لاحتجّوا بأنّه من جنسٍ

---

(١) الكهف ١٨: ١١٠.

(٢) الإسراء ١٧: ٩٣.

(٣) الأحزاب ٣٣: ٢١.

لا شهوةَ له ، بينما هم بشر لهم شهوات وملذّات ، فلا يمكنهم التأسّي به ، فأراد الله تعالى قطع الحجّة عليهم ، فبعث الله الرسل لهم من جنسهم ؛ وقد أشارَ لذلك بقوله : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾[1] ، أي : أنّ واحدةً من نعم الله الكبيرة على خلقه أن جعل الرسل من جنسهم .

ولأجل نكتة الاحتجاج هذه ؛ فإنّ القرآن الكريم حين يركّز على وجود الجنبة البشريّة عند النبيّ ، لا بدّ أن يُركِّز على وجود جنبة أُخرى عنده ، ولذلك تراه حين يقول : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ يقول أيضاً : ﴿يُوحَى إِلَيَّ ﴾ ،للتأكيد على أنّ النبيّ مركّب ثنائي من جنبتين : جنبة المادّة وجنبة الغيب .

النقطة الثالثة

أبعاد الرؤية الغيبيّة لمعرفة المعصوم عليه السلام

تقدّم أنّ الرؤية التي يطرحها الشيعة تقول : إنّه يجب معرفة المعصوم من خلال الرؤية الغيبيّة ، بمعنى أنّ المعصوم وإن كان بشراً ، إلّا أن هذا الكائن البشريّ ليس كبقيّة البشر ، بل له خصائص يتميّز بها على جميع البشر ، فالبشر يخطئون وهو لا يخطئ ، والبشر يجهلون وهو لا يجهل ، والبشر يلهون ويلعبون وهو لا يلهو ولا يلعب ، والبشر عاجز عن التصرّف فيما حوله والمعصوم قادر على التصرّف في الكون من أصغر ذرّة إلى أكبر مجرّة بإذن الله تعالى .

والذي ندّعيه : أنّ القرآن الكريم هو الذي رفض الرؤية المادّيّة وهاجمها وشنّع عليها ، وهو المؤسّس للرؤية الغيبيّة ، فلدعوانا شقّان :

---

(١) آل عمران ٣ : ١٦٤ .

الشقّ الأوّل: القرآن يرفض الرؤية المادّيّة.

ويشهد لذلك من الآي القرآنيّ:

قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾(١).

ومثله قوله تعالى أيضاً: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إذن لَخَاسِرُونَ ﴾(٢).

وكذا قوله تعالى شأنه العالي: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(٣).

والمتحصّل من هذه الآيات القرآنيّة: أنّ الرؤية المادّيّة التي تصوّر النبيّ على أنّه مجرّد بشر، قد رفضها القرآن، وشنّع على من يتبنّاها.

الشقّ الثاني: القرآن هو المؤسّس للرؤية الغيبيّة.

وهذا ما نقرأه في قوله تعالى شأنه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(٤)، ووجهُ استفادة الرؤية الغيبيّة

---

(١) الأنبياء ٢١: ١ ـ ٣.

(٢) المؤمنون ٢٣: ٣٣ و ٣٤.

(٣) الشعراء ٢٦: ١٨٦ و ١٨٧.

(٤) البقرة ٢: ٣٠.

من هذه الآية المباركة: أنّها قد اختارت للحديث عن نظام الاستخلاف في الأرض لفظ (الخليفة) ـ دون لفظ الرسول أو النبيّ أو الإمام وما شاكلها ـ والخليفةُ لغةً وعرفاً هو: الحائز على صفات المستخلِف، وهذا يعني أنّ الخليفة هو مَن يُجسِّدُ المُستَخلِف في صفاته وأفعاله، ويكون مرآةً له.

فمثلاً: لو أنّ شخصاً كان معروفاً بالإيمان والورع والتقوى والسخاء، وكان له ولدان: أحدهما تقيّ ورع كريم، والآخر فاجر فاسق بخيل، فلا شكّ أنّ الولد الأوّل هو الذي يصحّ أن يُطلق عليه وصف (خليفة أبيه)؛ لأنّه هو من يجمع صفات المستخلف.

ومن هنا نحن نقول: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله حقّاً؛ لأنّه هو الذي يجمع صفات الرسول ـ علماً وعبادةً وجوداً وشجاعةً وحلماً وغير ذلك ـ وأمّا غيره فيمتنع إطلاق وصف خليفة الرسول عليه قطعاً؛ لأنّه لا يحاكيه في شيء من صفاته.

إذا عرفتَ ذلك تعرف أنّ القرآن عندما استخدم لفظ (الخليفة) في حديثه عن نظام الاستخلاف بقوله: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ فهو الذي أسّس للرؤية الغيبيّة؛ لأنّ خليفته هو مَن يكون مرآة لصفاته، فعلمه مرآة لعلمه، وقدرته مرآة لقدرته، وحكمته مرآة لحكمته، وعصمته مرآة لعصمته، وهكذا، **وبعبارةٍ جامعة**: إنّ خليفة الله في أرضه ـ بمقتضى التعريف اللغويّ والعرفيّ ـ هو من يكون جامعاً وعاكساً لصفات الله تعالى، مع فارق أنّ صفات الخليفة صفات إفاضيّة، بمعنى أنّها مفاضة عليه من قِبل الله تعالى، بينما صفات الله تعالى صفات ذاتيّة استقلاليّة، بمعنى أنّها ثابتة له بالذات والاستقلال.

ومن هذا المنطلق جاء اعتقادنا في كلِّ مَن يتصف بصفة (خليفة الله)

ـ وهو الرسول أو النبيّ أو الوصيّ ـ أنّه لا بدّ أن يكون من مرايا الذات المقدّسة في كلّ صفاته، وهذا ما يوجب تنزيهه عن الجهل والخطأ والاشتباه ونحو ذلك من النقائص، ووصفه بمعالي الصفات، كالعلم الغيبيّ، والقدرة التكوينيّة، والعصمة، ونحو ذلك، ولا يكون ذلك ـ على ضوء هذه الرؤية القرآنيّة ـ من الغلوّ في شيء.

ومن هنا نفهم أيضاً سِّر تعريف الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام للإمامة بقوله: «**إِنَّ الْإِمَامَةَ خِلَافَةُ اللهِ**»[1]، كما ويتّضح لنا البون الشاسع بين هذا التعريف الدقيق للإمامة ـ الذي يتناغم مع الرؤية القرآنيّة ـ وبين تعريف بعض المتكلّمين لها بقولهم: (رئاسة عامّة في أُمور الدين والدنيا)، فإنّ هذا التعريف فيه من التحجيم ما لا يخفى.

(١) تحف العقول عن آل الرسول: ٤٣٨.